كتب أبو زكريا إلى ابنه وولي عهده :

اعلم سددك الله وأرشدك، وهداك لما يرضيه وأسعدك، وجعلك محمود السيرة، مأمون السريرة، ان أول ما يجب على من استرعاه الله في خلقه، وجعله مسؤولا عن رعيته في جل أمرهم ووحده، ان يقدم رضى الله عز وجل في كل أمر يحاوله، وأن يكل أمره وحوله وقوته لله، ويكون عمله وسعيه وجده عن المسلمين، وحربه وجهاده للمؤمنين، بعد التوكل عليه والبراءة من الحول والقوة إليه، وحتى فاجأك أمر مقلق أو ورد عليك نبأ مرهق، فريّض لبك وسكن جأشك وارع عواقب أمر تأتيه، وحاوله قبل أن ترد عليه وتغشيه، ولا تقدم إقدام الجاهل ولا تحجم إحجام الأخرق المتكاسل، واعلم أن الأمر إذا أطاق مجاله، وقصر عن مقاومته رجاله، فمفتاحه الصبر والحزامة والأخذ مع عقلاء الجيش ورؤسائهم، وذي التجارب من نبهائهم، ثم الإقدام عليه، والتوكل على الله فيما لديه، والإحسان لكبير جيشك وصغيره، الكبير على قدره والصغير على قدره، ولا تلدق الحقير بالكبير فتجري الحقير على نفسك وتغلطه في نفسه وتفسد نية الكبير وتوثره عليك فيكون احسانك إليه مفسدة في كلا الوجهين، ويضيع إحسانك، وتشتت نفوس من معك، واتخذ كبيرهم أبا، وصغيرهم ابنا، وخفض لهم جناح الذل من الرحمة، وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين، واتخذ نفسك صغيرة، وذاتك حقيرة، وحقر أمورك، ولا تستمع أقوال الغالطين المغلطين بأنك أعظم الناس قدرا وأكثر بذلا وأحسنهم سيرة وأجملهم صبرا، فذاك غرر وبهتان وزور، واعلم أن من تواضع لله رفعه الله، وعليك بتفقد رعيتك والبحث عن عمالهم، والسؤال عن سير قضاتهم فيهم، ولا تنم عن مصالحهم، ولا تسامح أحدا فيهم، ومحما دعيت لكشف ملمة فاكشفها عنهم، ولا تراع فيهم كبيرا ولا صغيرا إذا عدل عن الحق، ولا تراع في فاجر ولا متصرف إلا ولا ذمة، ولا تقتصر على شخص واحد في رفع مسائل الرعية والمتظلمين، ولا تقف عند مراده في أحوالهم، واتخذ لنفسك ثقاة صادقين مصدقين، لهم في جانب الله أوفر نصيب، وفي رفع مسائل طلقه إليك أسرع مجيب وليكن سؤالك لهم أفذاذ، فإنك متى اقتصرت على شخص واحد في نقله ونصحه، حمله الهوى على الميل، ودعته النميمة إلى تجنب الحق وترك قول الصدق، وإذا رفع إليك أحد مظلمة وأنت على طريق، فادعه إليك وسله حتى يوضح قصته لك وجاوبه جواب مشفق ممح إلى قوله، مصيخ إلى نازلته ونقله، ففي إصاختك له وتنوك عليه أكبر تأنيس، والمسايسة والرئاسة في نفوس الخاصة والعامة والجمهور أعظم تأسيس، واعلم أن دماء المسلمين وأموالهم حرام على كل مؤمن بالله واليوم الآخر، إلا في حق أوجبه الكتاب والسنة، وعضدته أقاويل الشرعية والحجة، أو في مفسد عايث في طرقات المسلمين وأموالهم، جار على غيه في فساد صلاحهم وأحوالهم، فليس إلا السيف، فإن أثره عفاه ووقعه لداء الأدمغة الفاسدة دواء، ولا تقل عثرة جسود على النعم، عاجز عن السعي، فإن اقالته تحمله على القول، والقول يحمله على الفعل، ووبال عمله عائد عليك فاحسم داءه قبل انتشاره، وتدارك أمره قبل إظهاره، اجعل الهوت نصب عينيك، ولا تغتر بالدنيا، وإن كانت في يديك، ولا تنقلب إلى ربك إلا بما قدمته من عمل صالح ومتجر في مرضاته رابح، واعلم ان الإيثار أربح المكاسب وأنبح المطالب، والقناعة مال لا ينفد، وقد قال بعض المفسرين في قوله عز من قائل وترك عليه في الآخرين، إنه النبا الحسن في الدنيا على ما خلد فيها من الأعمال المشكورة والفعلات الصالحة المذكورة، فليكفيك من دنياك ثوب تلبسه وفرس تذب به عن عباده، وارجو بك متى جعلت وصيتي هذه نصب عينيك، لم تعدم من ربك فتحا، ييسره على يديك وتأييدا ملازما لا يبرح عنك إلا إليك، بمن الله وحوله وطوله، والله يجعلك ممن سمع فوعى، ولبّى داعي الرشد إذ دعى، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة حدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

رسالة أبو زكرياء الحفصي